

# التوسع أو الاتساع في الوساطة والمثل السائر

الأستاذ المشارك الدكتور

إحسان بن صادق بن محمد اللواتي

سلطنة عمان

جامعة السلطان قابوس - كلية الآداب والعلوم الاجتماعية

ehsansadiq@hotmail.com

## الملخص:

على الرغم من وضوح الدلالة اللغوية المعجمية لـ "التوسع" أو "الاتساع"، فهي نقيضة الضيق، فقد استعمل النقاد القدماء هاتين الكلمتين بمدلولات متنوعة في سياقات مختلفة، لكن هذه المدلولات لم تجد من الباحثين المعاصرين العناية الكافية التي تستحقها، فاكتمى بعض بنقل الكلمتين كما وردتا في عبارات السابقين دون أن يكلف نفسه عناء شرح دلالاتهما أو تتبع آفاقهما، وذكر آخرون عبارات مقتضبة تحوي أحكاماً عامة هي أقرب إلى الانطباع الشخصي، منها إلى البحث العلمي الدقيق.

تحاول هذه الدراسة أن تقارب الكلمتين بمنهج يتوخى تتبع موارد ذكرهما في كتابين تراثيين معروفين هما: "الوساطة بين المتنبي وخصومه" للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني (ت ٣٩٢هـ)، و"المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر" لضياء الدين ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ). والدراسة بهذا تسعى إلى أن تنأى بنفسها عن الأحكام الانطباعية العامة، فتقرأ الكلمتين في سياقات ورودهما في كتابين معروفين بتكرار استعمالهما لهما بدلالات اختلف الباحثون في تحديدهما، فكانت لهم في المجال أقوال وآراء متعددة تقف الدراسة عندها لمناقشتها، لتصل بعدها إلى رأيها الخاص الذي تربطه، بعدئذ، بمعطيات الدراسات الأسلوبية الحديثة.

الكلمات المفتاحية: التوسع، والنقد، والمصطلح، والتشخيص، والاستعارة،

والانزياح.

## مدخل:

يظفر مراجع تراثنا العربي، ولاسيما النقدي والبلاغي منه، بمجموعة لا يستهان بها من الكلمات التي يحس - منذ الوهلة الأولى لقراءته لها - بأن أصحابها حاولوا أن

يسلكوا بها سبلاً تختلف، مهما كانت درجة هذا الاختلاف، عن سبيل الاستعمال العادي كما تحدده معجمات اللغة. وبعبارة أخرى، فالقارئ المعاصر ينتابه هاجس ما بأن تلكم الكلمات قد سعى مستخدموها إلى إضفاء صبغة اصطلاحية عليها، مهما بدت هذه الصبغة خافتة. ومع أن مثل هذا الهاجس ليس جديداً، فما تزال الدراسات المعاصرة في مجال استخراج المصطلحات القديمة من مصادرها الأصلية، وتتبع الكيفية التي تطورت بها هذه المصطلحات، وأخيراً ربطها بما يمكن أن تربط به من مصطلحات حديثة، شحيحة ومحدودة.

ومن هذه الكلمات التي لم تلقَ من العناية ما تستحقه، كلمة "التوسع" أو "الاتساع" التي تحمل دلالة واضحة على الانفتاح والتجاوز والخروج من إيسار المحدودية والانحصار، إذ أن "السعة: نقيض الضيق"<sup>(١)</sup>، لكن هذا من جهة الدلالة اللغوية المحضة، فماذا عن الدلالة الاصطلاحية؟ كيف تعاملت الكتابات التراثية العربية مع هذه الكلمة؟ وما المجالات التي استعملتها فيها؟ وما الأبعاد التي منحها إياها؟ هذه وما يشابهها هي الأسئلة التي ما تزال تنتظر من الدارسين المعاصرين إجابات وافية عنها.

لقد أشار الدكتور شكري عياد<sup>(٢)</sup> إشارة عجلى - فيما يقل عن ثلاث صفحات - إلى ورود مصطلح "التوسع في الكلام" لدى سيويوه وعبد القاهر الجرجاني والبلاغيين المتأخرين كالسكاكي والقزويني، وقد بقيت كلمة "التوسع" عند هؤلاء - فيما يرى الدكتور عياد - تدور حول المجاز، والاختصار، والحذف، والإيجاز والإطناب والمساواة. كما تحدث الدكتور أحمد مطلوب<sup>(٣)</sup> حديثاً مقتضباً - فيما يقل عن صفحة واحدة - عن "التوسع" لدى كل من الجاحظ والزركشي والسبكي، مكتفياً بنقل أقوال هؤلاء العلماء وشواهدهم من القرآن الكريم والشعر، دونما محاولة حقيقية منه لتحديد المصطلح وبلورته، بله تتبع تطوره تاريخياً، وربطه بالمصطلحات الحديثة.

أما الدراسة الحالية فهي لا تزعم لنفسها أنها جاءت لتقول كل ما يمكن قوله عن "التوسع" أو "الاتساع"، فغاية ما ترمي إليه هو تتبع الكلمة لدى ناقلين عربيين قديمين هما: القاضي الجرجاني (ت ٣٩٢هـ) في "الوساطة بين المتنبي وخصومه"، وابن الأثير (ت ٦٣٧هـ) في "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر"، لتحديد مدلولها لديهما، ولتنتقل

– بعد هذا – إلى محاولة ربط المدلول، أو المدلولات، بما يقابله، أو يقابلها، من مصطلحات الدراسة الأسلوبية الحديثة.

### "التوسع" في "الوساطة":

ذكر "التوسع" أو "الاتساع" في مواضع متعددة من "الوساطة". ويهمني في البدء، أن أتوقف، من بين هذه المواضع المتعددة، لدى موضع محدد؛ نظراً لما أثاره هذا الموضع من كلام سيأتي ذكره لاحقاً. هذا الموضع الذي أعنيه هو عندما تحدث القاضي الجرجاني عن أن المعترضين على أبي الطيب المتنبي أحد رجلين: "إما نحوي لغوي لا بصر له بصناعة الشعر (...). أو معنوي مدقق لا علم له بالإعراب، ولا اتساع له في اللغة، فهو ينكر الشيء الظاهر، وينقم الأمر البين"<sup>(٤)</sup>.

فقد استعمل الجرجاني كلمة "الاتساع" ههنا، وعندما أخذ يعرض أمثلة على ما أنكره هؤلاء "المعنويون" واعترضوا عليه، ذكر إنكار بعضهم قول الشاعر: "فالغيث أبخل من سعى"، انطلاقاً من أن "من لا تكون إلا لما يعقل، وأفعل لا يجري إلا على البعض من تلك الجملة، تقول: زيد أفضل من الناس؛ فلا بد أن يكون زيد من الناس"<sup>(٥)</sup>. وقد رد الجرجاني هذا الإنكار قائلاً: "وهذا الاعتراض يدل على تقصير شديد في العلم بكلام العرب؛ لأن العرب إذا وصفت الشيء بصفة غيره استعارت له ألفاظه، وأجرته في العبارة مجراه، وإن كان لو انفرد عنه بصفته وتميز دونه بعبارته؛ فمن ذلك قول الله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ رَأْيُهُمْ لِيَ سَجْدِينَ﴾<sup>(٦)</sup> لما وصفهما بالسجود جمعهما بالياء والنون، ولا يجمع بهما إلا جنس من يعقل... وكذلك قوله حاكياً عن السموات والأرض: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾<sup>(٧)</sup>، لما حكى عنهما النطق والقول والطاعة والائتمار أجرى الكلام على ذلك فقال: "فقضاهن"، وعلى هذا قوله عز وجل: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾<sup>(٨)</sup>، وهو كثير"<sup>(٩)</sup>.

لقد دعا كلام الجرجاني هنا الدكتور محمد مندور إلى أن يقول: "وتلك الظاهرة التي لم يستطيع (كذا) هؤلاء المعنويون فهمها والتي يشرحها هنا الجرجاني، هي المعروفة في علم الأسلوب (كذا) بالتشخيص "Personification"<sup>(١٠)</sup>.

وجاء، بعد ذلك، أستاذنا الدكتور يوسف بكار ليربط بين "التشخيص" الذي ذكره الدكتور مندور، و"الاتساع" الذي ذكره الجرجاني، متوصلاً إلى نتيجة كبيرة هي أن "الاتساع" أو "التوسع" لدى الجرجاني إنما هو "التشخيص"<sup>(١١)</sup>.

ولا مرأى في أن الأمثلة التي نقلناها عن الجرجاني ههنا، هي أمثلة يصدق عليها "التشخيص" بصورة جلية. لكن هذا شيء، والقول إن هذا "التشخيص" هو المعنى "بالاتساع" شيء آخر، فهذا القول يصعب قبوله؛ ذلك أن الملاحظ أن الجرجاني لم يقتصر، في أمثله لما أنكره هؤلاء "المعنويون" الذين تحدث عنهم، على الأمثلة التي تقدم نقلها، بل أضاف إليها مثالين آخرين لا بد لنا من أخذهما بالحسبان فيما إذا أردنا فهم المدلول الدقيق "للاتساع" الذي تحدث عنه. وهذان المثالان الآخريان - اللذان لم ينقلهما أستاذنا الدكتور بكار - بعيدان كل البعد عن مفهوم "التشخيص". فالمثال الأول هو بناء أفعل التفضيل من الألوان، كقول المتنبي: "لأنت أسود في عيني من الظلم"، والمثال الآخر استعمال المتبني الفعل "أثاب" - وليس "ثاب"، كما هو شائع - في قوله: "أثاب بها معيبي المطي ورازمه"<sup>(١٢)</sup>.

ونحن إذا ضمنا هذين المثالين إلى الأمثلة السابقة، فلن يبقى لدينا شك في كون مفهوم "الاتساع" عند الجرجاني أوسع من أن يُحصَر في "التشخيص" وحده. نعم، "التشخيص" مظهر من مظاهر "الاتساع"، لكنه ليس المظهر الوحيد، فقد برز لنا من المثالين الأخيرين مظهران آخريان هما: الخروج على القاعدة النحوية، والتوسع في الاستعمال اللغوي خارج الأطر المعجمية المحددة.

وإذا ما كنا نسعى إلى الوقوف على كل أبعاد "التوسع" أو "الاتساع" في الوساطة، فلا يحصى عن استقراء كل الموارد التي وردت فيها هاتان الكلمتان - أو الكلمات المشتركة معهما في الجذر اللغوي - في الكتاب. وبالقيام بمثل هذا الاستقراء يتضح أن القاصي الجرجاني يستعمل "التوسع" قاصداً به معنى مقارباً لمعنى التجاوز والتخطي. وهذا قد يكون بلحاظ جانب المعنى، كقوله مثلاً: "فأما الإفراط فمذهب عام في المحدثين، وموجود كثير في الأوائل، والناس فيه مختلفون، فمستحسن قابل، ومستقبح راد، وله رسوم متى وقف الشاعر عندها، ولم يتجاوز الوصف حدها، جمع بين القصد والاستيفاء، وسلم من النقص والاعتداء، فإذا تجاوزها اتسعت له الغاية..."<sup>(١٣)</sup>. وقد يكون التجاوز بلحاظ

جانب اللفظ، كقول المؤلف في سياق حديثه عن استعمال الشعراء الألفاظ الفارسية في أشعارهم: "فأما المحدثون فقد اتسعوا فيه حتى جاوزوا الحد..."<sup>(١٤)</sup>، وكقوله في سياق حديثه عن استعمال الشعراء الشواذ من الألفاظ في أشعارهم: "وهذا باب يتسع فيه القول، وتشعب فيه الوجوه..."<sup>(١٥)</sup>.

إن هذا التجاوز الذي يشير "الاتساع" إليه، لينقل ذهن المرء إلى مصطلح آخر اعتمدت الدراسات الأسلوبية المعاصرة عليه اعتماداً وثيقاً، وهو "الانزياح"، بمختلف التعبيرات التي عبر عنه بها، إذ "الإزاحة - الانزياح - العدول - الانحراف - الانتهاك - الخرق - التجاوز، كلها مصطلحات قد تعني في الحقل الفني والأسلوبي كسر المألوف وخرق قانون اللغة"<sup>(١٦)</sup>. وكم يبدو مغريباً القول: إن القاضي الجرجاني لم يقصد "بالتوسع" أو "الاتساع" سوى ما تقصده الدراسات الأسلوبية بالانزياح أو الانحراف! لكن الإنصاف يقتضينا أن نلاحظ، ضمن موارد استعمال الجرجاني "للتوسع"، مورداً قال فيه: "قد قال الفريقان ما حكيناه، وقد كان لأبي الطيب في الصحيح مندوحة، وفي المجتمع عليه متسع"<sup>(١٧)</sup>. ففي هذا المورد، وهو مورد وحيد فيما أزعم، يجعل الجرجاني "الاتساع" في جهة الأمر المتعارف والمجتمع عليه، أي في جهة "المعيار" أو "الأصل"، وهذا ينفي تماماً أن يكون "الاتساع" هنا بمعنى الانزياح. لكن ما دام هذا المورد وحيداً، فمن السهولة بمكان إذن أن نعهده استثناءً. ومتى ما تم لنا ذلك، فإن دلالة "الاتساع" على الانزياح، فيما تبقى من موارد، تظل سليمة غير مدفوعة.

#### "التوسع" في "المثل السائر":

على الرغم من كون ابن الأثير قد استعمل كلمة "التوسع" بمعناها اللغوي المشير إلى التجاوز والتخطي في غير موضع من كتابه، كقوله مثلاً عن التجريد: "وقد تأملته فوجدت له فائدتين: إحداهما أبلغ من الأخرى: فالأولى: طلب التوسع في الكلام"<sup>(١٨)</sup>، وقد جعل اللغة العربية مزية على غيرها من اللغات لما فيها من التوسعات الكثيرة<sup>(١٩)</sup>، فإنه كان أكثر حرصاً من القاضي الجرجاني على الاقتراب بالكلمة من دلالة اصطلاحية محددة، تُكسبها صبغة علمية واضحة، وإن لم تقطع صلتها، بالطبع، بمدلولها اللغوي الأصلي. وقد ظهر حرصه هذا عندما قسم المجاز في اللغة قسمين: توسع في الكلام، وتشبيه<sup>(٢٠)</sup>. وأساس هذه القسمة لديه هو أن العدول عن الحقيقة إلى المجاز إما أن يكون

لمشاركة بين المنقول والمنقول إليه في وصف من الأوصاف، وإما أن يكون لغير مشاركة. فإن كان لمشاركة كان ذلك تشبيهاً، وهو ينقسم بدوره إلى تشبيه تام واستعارة. وإن كان لغير مشاركة، وهو محل اهتمامنا الآن، فذلك هو "التوسع".

وهكذا يكون "التوسع" أو "الاتساع"، في نظر ابن الأثير، هو العبور من المعنى الحقيقي إلى المعنى المجازي لغير وصلة أو مناسبة<sup>(٢١)</sup>، أو "هو أن تُجرى صفة من الصفات على موصوف ليس أهلاً لأن تُجرى عليه؛ لبعدهما بينه وبينها"<sup>(٢٢)</sup>. وقد مثل ابن الأثير "للتوسع" بمجموعة من الأمثلة<sup>(٢٣)</sup>، عدّ التوسع في بعضها قبيحاً، وفي بعضها الآخر حسناً. فمن أمثلة التوسع القبيح قول أبي نواس:

بُحَّ صَوْتُ الْمَالِ مِمَّا      مِنْكَ يَشْكُو وَيَصْحِيحُ  
وقول أبي تمام:

وَكَمْ أَحْرَزَتْ مِنْكُمْ عَلَى قَبْحِ قَدِّهَا      صُرُوفُ النَّوَى مِنْ مَرْهَفِ حَسَنِ الْقَدِّ

ومن أمثلة التوسع الحسن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾﴾<sup>(٢٤)</sup>. وقد علّق ابن الأثير على هذه الآية بقوله: "فنسبة القول إلى السماء والأرض من باب التوسع؛ لأنهما جماد، والنطق إنما هو للإنسان لا للجماد، ولا مشاركة ههنا بين المنقول والمنقول إليه"<sup>(٢٥)</sup>.

لقد تباينت مواقف الباحثين المعاصرين أمام مصطلح "التوسع" كما تناوله ابن الأثير، فبعضهم آثر السلامة، فمرّ بالمصطلح مكتفياً بذكره، دون أن يشرحه بكلمة واحدة، ومن هؤلاء الدكتور شوقي ضيف<sup>(٢٦)</sup>، والدكتور يوسف أبو العدوس<sup>(٢٧)</sup>. وبعضهم حاول أن يربط هذا المصطلح ببعض المصطلحات البلاغية التي تبلورت بعد ابن الأثير، أو ببعض المصطلحات النقدية والأسلوبية المعاصرة. فمن هؤلاء الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد الذي صرح بأن التوسع "هو نوع من المجاز يسميه المتأخرون المجاز المرسل"<sup>(٢٨)</sup>، ومنهم أيضاً أستاذنا الدكتور يوسف بكار الذي ذهب، مرة أخرى، إلى أن التوسع ههنا ليس سوى "التشخيص"، وأن ابن الأثير كان "أوعى من أدرك مفهوم التشخيص بعد عبد القاهر وتوسع فيه"<sup>(٢٩)</sup>.

فأما فيما يرتبط بما ذكره الشيخ عبد الحميد، فصحيح أن كثيراً من الأمثلة التي ذكرها ابن الأثير يمكن إدراجه تحت المجاز المرسل، لكن من المجازفة بمكان أن نعدّ التوسع مرادفاً دوماً لديه للمجاز المرسل كما عرفه المتأخرون؛ ذلك أن ابن الأثير في سياق مناقشته الطويلة لأبي حامد الغزالي<sup>(٣٠)</sup>، توقف عند الأمثلة الآتية:

- ﴿إِنِّي أَرَبُّنِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾<sup>(٣١)</sup> (تسمية العنب خمراً، بلحاظ ما سيكون).
  - وما العيش إلا نومة وتشرقّ ❖ وتمر على رأس النخيل وماء (تسمية الرطب تمراً، بلحاظ ما سيكون).
  - قولهم للآدمي: مضغة (بلحاظ ما كان).
  - تسمية الاعتقاد قولاً (بلحاظ اللازمية).
  - قولهم للمطر: سماء (بلحاظ المحلية).
  - قولك لمن تبغضه: "أبعد الله وجهه عني"، وإنما تريد سائر جثته (بلحاظ الجزئية).
- وقد أدخل ابن الأثير هذه الأمثلة كلها - على تردد منه في خصوص المثال الخامس منها - في باب الاستعارة. وكان ينبغي له - لو كان ما ذهب إليه الشيخ عبد الحميد صحيحاً - أن يدخلها في باب "التوسع"، لا الاستعارة؛ لوضوح أن هذه الأمثلة كلها داخلية تحت المجاز المرسل.
- ثم إننا إذا تأملنا الأمثلة التي أوردها ابن الأثير للتوسع، من منظور المصطلح البلاغي القديم، لوجدنا أن من هذه الأمثلة ما يصلح أن يكون داخلاً تحت الاستعارة المكنية<sup>(٣٢)</sup> أو المجاز العقلي، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾<sup>(٣٣)</sup>، وكما في قول النبي (ﷺ) عن جبل أحد: "هذا جبلٌ يحبنا ونحبه"<sup>(٣٤)</sup>.
- وهذا كله مما يدفع أن يكون مراد ابن الأثير من "التوسع" ما أراده البلاغيون المتأخرون من مصطلح "المجاز المرسل".
- وأما ما ذكره أستاذنا الدكتور يوسف بكار من ربط "التوسع" لدى ابن الأثير "بالتشخيص" فلا خلاف في أن "التشخيص" واضح في معظم الأمثلة التي ساقها ابن

الأثير، ولكن ينبغي، مع هذا، أن نتوقف بعض الشيء في ربط دلالة أحد المصطلحين بدلالة الآخر؛ وذلك لما يأتي:

فأولاً: ذكر ابن الأثير<sup>(٣٥)</sup>، في سياق مناقشته للغزالي أيضاً، أن قول العرب للمزادة: "راوية" إنما هو من باب "التوسع"؛ لأن الراوية في الحقيقة هي الجمل الذي يحمل المزادة. ومن الواضح أن هذا المثل لا مكان للتشخيص فيه، لكن هذا لم يمنع ابن الأثير من أن يعدّه من "التوسع".

وثانياً: مع أن ابن الأثير قد جعل التوسع قسيماً للتشبيه، وجعل الاثنين قسامين للمجاز، إلا أنه لم ينف حصول التوسع عند وجود التشبيه أيضاً، غاية الأمر أن التوسع في حالة وجود التشبيه غير مقصود لذاته، أو أنه، على حد تعبيره، قد "جاء ضمناً وتبعاً"<sup>(٣٦)</sup>. وكون التوسع متحققاً في حالة التشبيه يُعد أن يكون المراد بالتوسع التشخيص؛ وذلك لأن التشخيص لا يجتمع عادةً مع التشبيه، إذ أن التشخيص إنما يتحقق، عادة، فيما إذا كان المشبه به محذوفاً، وكانت بعض صفاته البشرية منسوبة إلى المشبه غير البشري. وبعبارة أخرى، فالتشخيص إنما يجامع الاستعارة المكنية أو المجاز العقلي، بالتعبيرات البلاغية القديمة، ولا يجامع التشبيه.

ومهما كان الأمر، فليس كل تشبيه تشخيصاً، بينما يلوح من عبارة ابن الأثير التي تقدمت الإشارة إليها أخيراً أن كل تشبيه توسع، غاية ما هناك أن هذا التوسع تبعي.

وأخيراً: يؤكد ابن الأثير، في غير موضع من كتابه، أن الاتساع لا يكون إلا عندما تنعدم تماماً المناسبة بين المنقول والمنقول إليه، "إذ لو كان لمناسبة لما كان ذلك اتساعاً، وإنما كان ضرباً من القياس في حمل الشيء على ما يناسبه ويشاكله، وحينئذ يكون ذلك تشبيهاً أو استعارة"<sup>(٣٧)</sup>. وهذا الإلغاء للمناسبة هو مما يباعد أيضاً بين الاتساع والتشخيص؛ ذلك أن التشخيص لم يلجأ إليه الشعراء، ولا سيما الرومانسيون منهم، إلا لأنهم "كانوا يتخيلون الطبيعة كلها، في جبالها، وحقولها، وأشجارها، وصخورها، كائنات تشاركتهم مشاعرهم القلبية، فتحزن لحزنهم، وتفرح لفرحهم"<sup>(٣٨)</sup>. فالشعراء، إذن، إنما عنوا بالتشخيص لأنهم كانوا يرون وجود أوثق



"المناسبة" بينهم وبين كل موجودات الطبيعة التي ألبسوها ثياب البشر، وهذا يتنافى تماماً مع ما اشترطه ابن الأثير في الاتساع.

لكن كل هذا الكلام المتقدم لا يعني أن الصلة معدومة تماماً بين اتساع ابن الأثير وما تطرحه الدراسات الأسلوبية المعاصرة من قضايا ومفاهيم، ففي وسع المرء أن يربط هذا الاتساع بنوع من الانزياح الإسنادي، تحدث عنه جان كوهن وسمّاه "المنافرة Impertinence"<sup>(٣٩)</sup>. وخلاصة ما ذكره كوهن في المقام: ثمة قانون عام يتعلق بتأليف الكلمات في جمل، وهو القانون القائل بضرورة أن يكون المسند ملائماً للمسند إليه في كل جملة إسنادية. فإذا ما وجدنا في جملة ما أن المسند غير ملائم للمسند إليه، كما في الجملة الآتية: "الإنسان ذئب لأخيه الإنسان"، فإن هذا يعني وجود "منافرة" بين طرفي هذه الجملة، فيما إذا فهمناهما على ظاهرهما. لكن هذه المنافرة ستنتفي إذا أحالنا المعنى الأول للمسند (ذئب) على معنى ثان (شرير)، ليكون معنى الجملة بالنتيجة: "الإنسان شرير"، وهو معنى سليم من المنافرة التي كنا نجدتها سابقاً.

نحن، إذن، أمام مستويين مختلفين: أولهما مستوى سياقي، وفيه لحظنا وجود الانزياح/ المنافرة بين المسند والمسند إليه في الجملة، والآخر مستوى استبدالي، وفيه قمنا بنفي هذا الانزياح من خلال لجوئنا إلى تغيير دلالة كلمة "ذئب" من دلالتها الأولى إلى دلالة أخرى، "ونحن بهذا التغيير نتج أنواعاً مختلفة من المجازات: إذا كانت العلاقة هي المشابهة نكون بصدد الاستعارة، وإذا كانت العلاقة هي المجاورة نكون بصدد الكناية، وإذا كانت العلاقة هي الجزئية والكلية نكون بصدد المجاز المرسل"<sup>(٤٠)</sup>. وهكذا يكون كوهن قد جعل لهذا النوع من الانزياح معنى واسعاً يشمل صنوف المجاز كلها، وما دام "التوسع" لدى ابن الأثير هو نوع من أنواع المجاز، فلن يكون من المغالاة إذن أن نربطه بهذا الانزياح الذي تحدث كوهن عنه.

ومن الواضح أن "المعيار" أو "الأصل" الذي كان "التوسع"، لدى ابن الأثير، انزياحاً عنه إنما هو الحقيقة؛ لأن التوسع انتقال عن المعنى الحقيقي دونما مناسبة. لكن الأمر عند كوهن مختلف، إذ أن المعيار لديه، في كل أنواع الانزياح التي تناولها في كتابه، يتمثل في لغة النثر العلمي<sup>(٤١)</sup>. وهذه المسألة قد كثر حولها الخلاف بين الأسلوبيين وتباينت فيها آراؤهم، "فالأسلوبيون قبل ريفاتار يذهبون إلى أن هذا النمط العادي يحدده الاستعمال،

غير أن مفهوم الاستعمال نفسه نسبي ولا يمكن الدارس من مقياس موضوعي صحيح، ويقترح ريفاتار تعويض مفهوم الاستعمال بما يسميه السياق الأسلوبي، فيكون مفهوم النمط العادي مرتبطاً بهيكل النص المدروس. معنى ذلك أن بنية النص من حيث العبارات والصيغ تُبرز هي نفسها مستويين اثنين: أحدهما يمثل النسيج الطبيعي وثانيهما يزدوج معه ويمثل مقدار الخروج عن حده<sup>(٤٢)</sup>. وقد اقترح الدكتور شكري عياد معياراً آخر لا يخلو من طرافة، وهو المتمثل في "صورة ذهنية مجردة، خالية من آثار اللهجات والأعراف اللغوية المختلفة. هي، إن شئت، اللغة التي يمكن أن يتكلمها شخصان متعلمان من قطرين عربيين متباعدين إذا التقيا للمرة الأولى"<sup>(٤٣)</sup>.

بقي أن يُشار إلى أن ابن الأثير لم يُجهد نفسه في تتبع الفائدة المترتبة على "التوسع"، أو ملاحقة أثره الجمالي في الكلام، فقد اكتفى بعده مطلوباً في حد ذاته، قائلاً: "وأما القسم الذي يكون العدول فيه عن الحقيقة إلى المجاز لغير مشاركة بين المنقول والمنقول إليه فذلك لا يكون إلا لطلب التوسع في الكلام، وهو سبب صالح؛ إذ التوسع في الكلام مطلوب"<sup>(٤٤)</sup>.

لكن الدراسات الأسلوبية المعاصرة لم تكتفِ بمثل هذا الكلام في تعاملها مع الانزياح، فقد حاولت ملاحقة وظيفته وأثره الجمالي بنحو أكثر دقة، ويلاحظ هنا أن الوظيفة الرئيسية التي أكثرت الدراسات الأسلوبية من نسبتها إلى الانزياح، إنما هي المفاجأة<sup>(٤٥)</sup>.

فخروج الكاتب على معيار الكلام العادي، أي ما كان هذا المعيار، يفاجئ القارئ، ويملؤه حماسة لمواصلة القراءة، ومن هنا كان "الانحراف في الأدب المكتوب أظهر منه في الأدب الشفوي بوجه عام؛ لأن الانحراف في الأدب المكتوب هو الوسيلة الوحيدة لجذب انتباه القارئ، أما في الأدب الشفوي فهو وسيلة واحدة بين وسائل عدة<sup>(٤٦)</sup>.

وقد أفادت الدراسات الأسلوبية المعاصرة في نظرتها إلى فائدة المفاجأة، من النتائج التي توصلت إليها "نظرية الإعلام". وكان من هذه النتائج "أن نسبة الإعلام تقل بقدر ما تزداد نسبة التوقع، فإذا كانت نسبة التوقع لوحدة من وحدات الرسالة عالية، فإن قيمتها تقترب من درجة الصفر، ومن ثم فإنها تدخل دائرة الحشو، وعكس ذلك صحيح"<sup>(٤٧)</sup>،

ومن هنا جاء تأكيد ريفاتير أن "العناصر التي لا يجوز أن تفوت الانتباه يجب أن تكون غير متوقعة" (٤٨).

تري، أكان ابن الأثير سيرضى بمثل هذه المقولات لو أنها قيلت في زمنه، أم أنه كان سيردّ عليها، كما ردّ على الزمخشري، قائلاً: "وليس الأمر كما ذكره؛ لأن الانتقال في الكلام من أسلوب إلى أسلوب إذا لم يكن إلا تطرية لنشاط السامع وإيقاظاً للإصغاء إليه، فإن ذلك دليل على أن السامع يملّ من أسلوب واحد فينتقل إلى غيره ليجد نشاطاً للاستماع، وهذا قدح في الكلام، لا وصف له؛ لأنه لو كان حسناً لما ملّ..." (٤٩)؟

#### الخاتمة:

بعد هذا التطواف في رحاب "التوسع" أو "الاتساع"، نخلص الدراسة إلى النتائج الآتية:

- لم تبق هاتان الكلمتان في كتبنا العربية التراثية ضمن حدود مدلولهما اللغوي الذي يعني نقيض الضيق، بل تجاوزتا هذه الحدود إلى معانٍ آخر ذات صلة وثيقة بالمعنى اللغوي.
- لم تلق هذه المعاني الأخر العناية الكافية من الدارسين المعاصرين، فما اعتنت بها دراسة متخصصة تحاول أن تضع يدها على اللحظة التاريخية التي بدأت فيها المعاني الاصطلاحية بالظهور، وتسعى بعدئذ إلى ملاحظة تطور هذه المعاني وتنوعها من كاتب إلى آخر، ومن عصر إلى لاحق. فمن المعاصرين من اكتفى بنقل عبارات القدماء التي استعملوا فيها الكلمتين دونما تعليق حقيقي وسعي لبيان مرادهم، ومنهم من أشار إلى فهمه لمرادهم بجمل مقتضبة وبيان لا يروي غليلاً.
- قد تكون دراسة الدلالات الاصطلاحية لمصطلح ما في كل كتاب تراثي على انفراد أدعى إلى بلورة أبعاد المصطلح ودلالاته. ففي ذلك الوقت المبكر ما كان ثمة إجماع بين المؤلفين على دلالات قارة ثابتة واضحة، بل كان لكل مؤلف تقريباً نهجه المنفرد وطريقته الخاصة في التعامل مع المصطلح، وهذا يقتضي أن ينال كل كتاب وكل مؤلف ما يستحقه من اهتمام خاص، ثم يُصار إلى النظر في كل جهود القدماء مجتمعة، للوصول بعدئذ إلى رؤية واضحة للمصطلح في أبعاده التاريخية المختلفة.

- اهتم القاضي الجرجاني بـ "التوسع" أو "الاتساع" في "الوساطة"، واستعمل المصطلح مرات متعددة بدلالات قد لا تكون صريحة ومباشرة؛ لذا اختلفت كلمات الباحثين بشأنها.
- رأت هذه الدراسة أن المعنى الاصطلاحي الذي أراده القاضي الجرجاني هو أقرب ما يكون إلى التخطي والتجاوز، في جانبي اللفظ والمعنى جميعاً، أي أن الدلالة المقصودة تكاد تكون مرادفة للدلالة التي يحملها مصطلح "الانزياح" في الدراسات الحديثة.
- استعمل ابن الأثير كلمة "التوسع" ببدولها اللغوي المباشر في مواضع متعددة من كتابه "المثل السائر".
- ثمة في الكتاب مواضع أخرى تتبدى فيها الكلمة مكتسبةً دلالات تتجاوز المعنى اللغوي الوضعي إلى آفاق أخرى تنبثق منه، وإن لم تنحصر فيه.
- أبان ابن الأثير عن حسه المرفه وذوقه الدقيق في التمييز بين الأساليب اللغوية المتنوعة والتراكيب الكلامية المختلفة حينما لم يجعل "التوسع" كله ذا قيمة واحدة، بل عدّ بعضه حسناً وبعضه قبيحاً، ومثّل للنوعين بأمثلة اختارها.
- تدل بعض أمثلة ابن الأثير على أن دلالة المصطلح عنده هي أقرب شيء إلى دلالة "المجاز المرسل"، كما تشير أمثلة ذكرها أيضاً إلى دلالة قريبة من "التشخيص"، لكن المصطلح عنده - في منظور هذه الدراسة - أعمق غوراً وأبعد شأواً من هذين المصطلحين المعروفين.
- ربطت الدراسة "التوسع" أو "الاتساع" في كتاب ابن الأثير بنوع من الانزياح الإسنادي تحدثت عنه الدراسات الأسلوبية المعاصرة وسمّته "المنافرة"، مع وجود بعض الفوارق التي لا بد من رعايتها بين الاستعمالين القديم والمعاصر، فليس المراد هنا ادعاء التطابق التام بينهما.

#### Abstract

Although the linguistic lexicon of "expansion" or "widening" is clear, it is the antithesis of narrowness. Old critics have used these words with different meanings in different contexts, but these connotations have not found the contemporary scholars enough attention. They mentioned the previous phrases without bothering to explain their meanings or follow

their horizons. Others mentioned succinct terms containing general provisions that were closer to the personal impression .

This study tries to approximate the two words in a way that follows the resources mentioned in two well-known heritage books: "Al Wasata" by Judge Ali bin Abdul Aziz Al-Jarjani (d. 392 AH) and "Al Mathal Al Saer" by Ibn Al Atheer (d.637 AH). The study thus seeks to distance itself from the general impressionistic judgments. The two words are read in context in two books known to be repeated for their use in terms of differences that the researchers differed in their definition. They had various opinions in which the study discussed and then reached its own opinion, which is connected With the data of modern stylistic studies.

Keywords: expansion , criticism , terminology, diagnosis , metaphor, and displacement .

### هوامش البحث :

- ١- ابن منظور: لسان العرب، مادة "وسع".
- ٢- شكري عياد: اللغة والإبداع، ص١١١-١١٣.
- ٣- أحمد مطلوب: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، ص٤٣٨.
- ٤- القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص٤٣٤-٤٣٩.
- ٥- المصدر نفسه، ص٤٣٩.
- ٦- سورة يوسف، الآية ٤.
- ٧- سورة فصلت، الآية ١١.
- ٨- سورة يس، الآية ٤٠.
- ٩- الوساطة، ص٤٣٩.
- ١٠- محمد مندور: النقد المنهجي عند العرب، ص٣٠٣. ويُعرّف "التشخيص" بأنه: "نسبة صفات البشر إلى أفكار مجردة أو إلى أشياء لا تتصف بالحياة" (مجدي وهبة وكامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ص١٠٢).
- ١١- يوسف بكار: قضايا في النقد والشعر، ص٤٢-٤٣.
- ١٢- الوساطة، ص٤٣٩ - ٤٤٠.
- ١٣- المصدر نفسه، ص٤٢٠. ولاحظ كذلك ص٦٢ و٧٤ و٩٩ و٢٨٤ و٤٤٣ و٤٣٢.
- ١٤- المصدر نفسه، ص٤٦٢.
- ١٥- المصدر نفسه، ص٤٥٣. وراجع أيضاً ص٤٤٣ و٤٥٠.

- ١٦- وسيم حجازي: "الإزاحة ولغة التواصل الإعلامي"، الفكر العربي، العدد ٨٩، صيف ١٩٩٧م، ص ١٤٨.
- ١٧- الوساطة، ص ٤٤٦.
- ١٨- ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج ١، ص ٤٠٥. ولاحظ أيضاً استعماله لكلمة "التوسع" في: ج ١ ص ٤٠٦ وج ٢ ص ٦ و ١١ و ٦١ و ٩٣.
- ١٩- المصدر نفسه، ج ١، ص ٨٥.
- ٢٠- المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٤٣.
- ٢١- المصدر نفسه، ج ١، ص ٧٤.
- ٢٢- المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٥٤.
- ٢٣- المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٤٨-٣٥٠.
- ٢٤- سورة فصلت، الآية ١١.
- ٢٥- المثل السائر، ج ١، ص ٣٥٠.
- ٢٦- في كتابه: البلاغة تطور وتاريخ، ص ٣٢٩.
- ٢٧- في كتابه: المجاز المرسل والكناية، ص ٣٧.
- ٢٨- في الحاشية (٢) من تعليقه على "المثل السائر"، ج ١، ص ٣٥٤.
- ٢٩- يوسف بكار: قضايا في النقد والشعر، ص ٤١.
- ٣٠- المثل السائر، ج ١، ص ٣٥٤-٣٥٩.
- ٣١- سورة يوسف، الآية ٣٦.
- ٣٢- مصطلح "الاستعارة" عند ابن الأثير لا يتناول سوى الاستعارة التصريحية (راجع المثل السائر، ج ١، ص ٣٥١)، ولذا لا يكون ثمة اعتراض عليه إذا كان بعض أمثلة "التوسع" من الاستعارة المكنية.
- ٣٣- سورة الدخان، الآية ٢٩.
- ٣٤- المثل السائر، ج ١، ص ٣٥٠.
- ٣٥- المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٥٦.
- ٣٦- المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٤٣.
- ٣٧- المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٥٤.
- ٣٨- جبور عبد النور: المعجم الأدبي، ص ٦٧.
- ٣٩- جان كوهن: بنية اللغة الشعرية، ترجمة محمد الولي ومحمد العمري، ص ١٠١-١١١.

- وتجدر الإشارة هنا إلى أن "المنافرة" هي من المصطلحات التي استعملها ابن الأثير أيضاً، قاصداً بها "أن يُذكر لفظ أو ألفاظ يكون غيرها مما هو في معناها أولى بالذكر" (المثل السائر، ج ١، ص ٢٩٦-٣٠٠).
- ٤٠- المرجع نفسه، ص ١٠٩.
- ٤١- المرجع نفسه، ص ١١٦.
- ٤٢- عبد السلام المسدي: الأسلوبية والأسلوب، ص ١٠٤.
- ٤٣- شكري عياد: اللغة والإبداع، ص ٨٦.
- ٤٤- المثل السائر، ج ١، ص ٣٤٨.
- ٤٥- أحمد ويس: "وظيفة الانزياح في منظور الدراسات الأسلوبية"، علامات، سبتمبر، ١٩٩٦م، ص ٢٩٧.
- ٤٦- شكري عياد: اللغة والإبداع، ص ٨١.
- ٤٧- أحمد ويس: "وظيفة الانزياح...."، ص ٢٩٩.
- ٤٨- ريفاتير: "معايير لتحليل الأسلوب"، ضمن كتاب شكري عياد: اتجاهات البحث الأسلوبي، ص ١٢٩.
- ٤٩- المثل السائر، ج ١، ص ٣-٤.

#### قائمة المصادر والمراجع

##### وخير ما ابتدئ به القرآن الكريم

- ١- ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٠م.
- ٢- بكار، يوسف: قضايا في النقد والشعر، دار الأندلس، بيروت، ١٩٨٤م.
- ٣- الجرجاني، علي بن عبد العزيز: الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي البجاوي، المكتبة العصرية، بيروت، د.ت.
- ٤- حجازي، وسيم: "الإزاحة ولغة التواصل الإعلامي"، الفكر العربي، العدد ٨٩، صيف ١٩٩٧م.
- ٥- ضيف، شوقي: البلاغة تطور وتاريخ، ط ٣، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٦م.
- ٦- عبد النور، جبور: المعجم الأدبي، ط ٢، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤م.
- ٧- أبو العدوس، يوسف: المجاز المرسل والكناية، الأهلية للنشر والتوزيع، عمّان، ١٩٩٨م.

- ٨- عياد، شكري محمد: اتجاهات البحث الأسلوبي، دار العلوم، الرياض، ١٩٨٥م.
- ٩- عياد، شكري محمد: اللغة والإبداع، انترناشونال برس، القاهرة، ١٩٨٨م.
- ١٠- كوهن، جان: بنية اللغة الشعرية، ترجمة محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال، المغرب، ١٩٨٦م.
- ١١- المسدي، عبد السلام: الأسلوبية والأسلوب، ط٤، دار سعاد الصباح، القاهرة، ١٩٩٣م.
- ١٢- مطلوب، أحمد: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، ط٢، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٩٩٦م.
- ١٣- مندور، محمد: النقد المنهجي عند العرب، دار نهضة مصر، القاهرة، د.ت.
- ١٤- ابن منظور: لسان العرب، دار صادر ودار بيروت، بيروت، ١٩٦٨م.
- ١٥- وهبة، مجدي وكامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ط٢، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٤م.
- ١٦- ويس، أحمد محمد: "وظيفة الانزياح في منظور الدراسات الأسلوبية"، علامات في النقد، الجزء الحادي والعشرون، المجلد السادس، سبتمبر ١٩٩٦م.